الفصل الثّالث

الوالديّة الصّالحة هَمّ المدرسة الفاعلة

قد يتساءل البعض، ماذا يعني هذا العنوان؟ وما علاقة المدرسة بممارسة الأهل والديتهم؟ والجواب يكمن في سؤال مُهمّ: ما الهدف من التربية المدرسية؟ هل تُربّي المدرسة تلامذتها وتُهيّئهم لحين تخرُّجهم منها فحسب؟ أم أنّها تُهيّئهم للحياة بكُلّ أبعادها ولمدىً غير منظور؟ بالطبع إنّ هدف المدرسة الأساسي هو أن تعدّ أجيالاً مثقفة، واعية، ومسؤولة تستطيع التأسيس لمستقبل أفضل على كلّ المستويات. لهذا الغرض، عليها أن تُساعد الأهل كي يصيروا أهلاً «أفضل» و«أكثر» مما هم عليه، أي أن يعيشوا وظيفتهم الوالديّة بصورة أشمل وأوعى وأنضج. فكلّما ساعدت المدرسة الأهل على عيش رسالتهم الوالدية بشكل أفضل، ساعدت نفسها إذ تؤهّلهم ليكونوا شُركاء لها يتمتعون بالإعداد الكافي والجهوزيّة التّامّة لذلك. ويتعزّز هذا الدّور عندما نُدرك أنّ الوالدين هُما المُعلّمَان الأوّلان لأولادهما وهُما اللّذان يتركان بصماتهما على حياة هؤلاء مدى العمر. وعلم النّفس التّربوي يؤكّد على هذه الحقيقة ويُعطيها أبعاداً متعددة لسنا الآن في وارد مُعالجتها، إنّما تأثير الأهل على أولادهم في حياتهم أكبر بكثير من أن يتمّ تجاهله.

تُعاني المدرسة اليوم من استقالة بعض الوالدين من دورهم على ضوء تغيّر الأولويّات. غالباً ما تلتقي أهلاً يستبدلون قضاء الوقت النّوعي

مع أولادهم بإغداق المال والهدايا عليهم تعويضاً لغيابهم عن حياتهم. وقد يواجهك أحدهم بالقول: «لا وقت لديّ أقضيه مع ابني، يجب أن أعمل لأوفّر المال اللازم لكي أؤمّن له العلم.» هذا قول، وإن كان صحيحاً في جزءٍ منه، يوصل هذا الوالد إلى يوم يشعر فيه بغربةٍ عن ابنه لأنّه لم يفرز له متّسعاً ولو قليلاً في حياته.

هذه هي الرّسالة الّتي على المدرسة إيصالها للأهل ومُساعدتهم، ليس فقط على فهمها والاقتناع بها، بل على ممارسة والديّتهم الكاملة بطريقة تربويّة متكاملة. فغالبيّة الأهل لم يتوفّر لهم الإعداد اللاّزم لمُمارسة العمل الوالدي التّربوي، ولا هم اكتسبوا هذه المهارة قبل أن يصيروا أهلاً. أضِف إلى ذلك أنّ تحدّيات العالم المُعاصر تُحتّم على الأهل لعب دور مُباشر وأكثر فعاليّة إلى جانب أولادهم لكي يتمكّنوا من أن يكونوا مصدر الدّعم الأساسي وعلى كُلّ الأصعدة لهؤلاء الأولاد.

١. كيف تستطيع المدرسة مُساعدة الأهل على عيش وظيفتهم الوالديّة؟

يحتاج الأهل في أيّامنا إلى كُلّ مُساعدة متوفّرة، وكلّ توجيه ممكن، ليستطيعوا مرافقة أولادهم إلى تحقيق ذواتهم في الحياة، ضمن إطار حياة عائليّة فُضلى تُقدّمهم للمُجتمع والأوطان استناداً إلى سُلّم القيَم الإنسانيّة والرّوحيّة الّتي تعتنقها العائلة. والمدرسة، رسميّةً كانت أو خاصّة، دينيّة أو علمانيّة، لا تستطيع أن تحيد عن هذه المبادئ لأنّ القِيَم تُسيّر عمل كُلّ مدرسة أيضاً وتُملي عليها رسالتها وأهدافها. وبصفتها وكيلة عن التّلامذة ومؤتمنة على نموّهم وتقدّمهم العلمي، تعمل المدرسة في الدّرجة الأولى على تشجيع الإداريّين والمُعلّمين على:

- إعادة النّظر في المفاهيم والفرَضيّات المُتوارثة عن الأهل ومدى

اهتمامهم، وقدراتهم وقيَمهم ومهاراتهم التّواصُليّة ومظهرهم الخارجي وثقافتهم، وغيرها، وعلى التحرّر من الأحكام المُسبقة الّتي تؤثّر على نظرتهم لهؤلاء الأهل.

- أخذ الوقت الكافي مع أهل تلامذتها، وإعطاء أهميّة قصوى للتّعرُّف إليهم وإدراك مدى تفاعلهم مع المدرسة، ومدى اهتمامهم بمُتابعة أولادهم، وعاداتهم البيتيّة، ومواهبهم، وأعمالهم، والضّيّق الذي يُعانون منه، وطريقة تصرّفهم مع أولادهم في البيت، خاصة في مسألة تعلّمهم، وكُلّ ما يمتّ بصلة إلى طريقة تربيتهم لهؤلاء الأولاد. فإدارة المدرسة ومُعلّميها بحاجة إلى أن يبعثوا إلى الأهل برسالة واضحة، مُباشرة وغير مُباشرة تقول: «نحن نُقدّرُكم ونقدِّر ما تقومون به ونحتاج ثقتكم لكي ننجح مع أولادكم». هذه الرّسالة تأتي واضحة عندما تعترف المدرسة بدور الأهل ومسؤوليّتهم، وتتطوّع لِمَدّ يد المُساعدة لهم لكي يأتي عملهم مع أولادهم مُفيداً (NPTA, 2000).
- تُشدّد الدراسات على أهميّة هذا النّوع من المُساعدة وانعكاساتها الإيجابيّة على التّلامذة والأهل والإدارة والمُعلّمين (Tunseth & Nowcki, 2003). فالتّلامذة يُصبحون أكثر وعياً لدور أهلهم في الإشراف التّربوي ولأهميّة التّربية في حياتهم العائليّة؛ ويكتسب الأهل احتراماً أكبر في عيون أولادهم، ويتعرّفون إلى خصائص مراحل النّمو من الطّفولة حتّى المُراهقة، ويزداد اقتناعهم بضرورة مُواجهة تحدّيات الحياة الوالديّة بحكمة ونضج ومُرافقة ومحبّة. أمّا الإداريّون والمُعلّمون فيزيد احترامهم لدور العائلة ولجهود العائلات، كما يُصبحون أكثر تقديراً للتّنوّع العائلي والطّلابي في مدرستهم، وأكثر تفهّماً لهموم العائلات وحاجاتها وأهدافها.

٢. دور القائد التّربوي في بعث روح التّعاون والمشاركة مع الأهل

إذا كانت التجربة تؤكّد على أهميّة دعم الأهل وتشجيع المهارات الوالديّة في الإطار المدرسي، فإنّ الواقع يبرز صعوبة كبرى في ترجمة هذه الأفكار إلى مُبادرات عمليّة تُحقّق النّجاح لأصحابها. ماذا يفعل القائد التّربوي أو الفريق التّربوي لجعل هذه الحقيقة واقعاً مُعاشاً يُحقّق النّجاح للأهل والمدرسة؟ الاقتراحات التّالية ترسُم إطاراً مُتكاملاً قد يُساعد الأهل على عيش أبوّتهم وأمومتهم بفعاليّة أكبر.

- يتحقّق من وصول المعلومات إلى كُلّ العائلات وليس فقط تلك الّتي تحضر الاجتماع أو تُشارك في اللقاءات أو المشاغل.
- يُشجّع الإداريّين والمُربّين على إظهار الاحترام الواجب لكُلّ العائلات مُعبّرين عن تقديرهم لدور الوالدين الأوّلي في تنشئة أولادهم.
- يُشدّد على أهميّة العلاقات الإيجابيّة بين الأهل وأولادهم ومدى انعكاس هذه العلاقات على إنجاز الأولاد وتقدّمهم ونموّهم.
- يربط العائلات بهيئات ومنظّمات أهليّة أو برامج اجتماعيّة أو مصادر دعم معنوي وروحي ومادّي في قلب المُجتمع المحلّي أو في الدّوائر الرّسميّة المُختصّة.
- يضع سياسات مدرسيّة تدعم مسؤوليّة الأهل وتأخُذ بالاعتبار تنوّع تقاليدهم وثقافاتهم وقُدراتهم بحسب ثقافات المُجتمع وتركيبته الاجتماعية والدينية.
- يُشجّع الأهل على إطلاع المُعلّمين على طريقة تعاطيهم مع أولادهم في البيت، ودرجة تحصيلهم العلمي ومدى حبّهم هم للتعلّم، وهمومهم التي تؤثّر مباشرة على نموّ الأولاد، ومعلومات تطال تاريخ

ولدهم/ أولادهم ووضعهم الصحيّ والسلوكي. . . ولا سيّما أولئك الّذين يُعانون من إعاقة أو مرض أو ذوي حاجات تّعليميّة خاصّة (فضول، ٢٠٠٤).

- يتعرّف إلى جنسيّات الأهالي على اختلافها موفّراً لهم الضّروري لمساعدتها على التكيّف ومعرفة ما يجري في المدرسة، مثل تأمين التّرجمة الفورية خلال الاجتماعات العامة، إرسال رسائل وتوجيهات مستخدماً أكثر من لغة، الخ (Colombo, 2004).
- يخلق، وبالتّعاوُن مع لجنة الأهل، دائرة تؤمّن المعلومات وتتلقّى الهموم والشّكاوى وتُحاول تذليلها والإجابة عنها بطريقة علميّة، كما تعدُّ لبرامج تعلّم وتنشئة للبالغين، وتوفّر التدريب على بعض المهارات، إلخ. . .
- يؤكّد على مسؤوليّة الأهل وحقّهم بالاطّلاع على كُلّ ما يحدُث في حياة أولادهم، (شيلدون، ٢٠٠٤) مثل: إطلاعهم على وجود خدمات خاصّة، نفسيّة واجتماعيّة وروحيّة توفّرها المدرسة، واستئذانهم قبل تقديمها لولدهم (عالم النّفس المدرسي سيُتابع ولدهم، المساعدة الاجتماعية ستزورهم في المنزل، الخ.).

٣. دور الأهل في تنمية الأولاد الشاملة

لا يختلف اثنان على أهميّة دور الأهل في سهرهم على تنمية أولادهم جسديّاً واجتماعيّاً وروحيّاً وفكريّاً بشكل يسمح لهم بإعدادهم لمواطنيّة صالحة ومسؤولة. للتّأكيد على هذه الحقيقة وتعزيز مضمونها، من واجب إداريّي المدرسة ومُعلّميها أن يحرصوا على إيجاد السُّبُل الكفيلة لمُساعدة الأهل على تتميم **أربعة أدوار** أساسيّة تسمح لهم بأن يُحقّقوا نجاحاً أكبر مع أولادهم، علماً أنّ لهذه الأدوار انعكاساتها الإيجابيّة على المدرسة (NPTA, 2000).

أ. دور المُربّي والمُغذّي

يلعب الأهل دور المُربّي والمُغذّي عندما يسهرون مُباشرةً على نموّ أولادهم الجسدي والفكري والأخلاقي والعاطفي والاجتماعي. ويُغذّون هذا النّمو بتوفيرهم مُناخاً منزليّاً وعائليّاً مُريحاً يُشجّع تّعلُّم أولادهم، ويُنمّي مهاراتهم، ويُقْدِر إنجازاتهم، ويوجد الحوافز اللازمة التي تسمح لهم بالمضيّ في طريق النجاح. بهذه الطريقة يُواكب الأهل نموّ أولادهم حتّى البلوغ.

ب. دور المُوجّه والمُرشد

يقوم الأهل بهذا الدّور عندما يُؤسّسون لنظام تواصُل باتجاهين، بين البيت والمدرسة من جهة، وبين الأهل وأولادهم من جهة ثانية. قنوات التّواصُل المفتوحة تسمح لهم بتوجيه أولادهم وإرشادهم مُباشرةً في مسائل شخصيّة، وأكاديميّة، وغيرها.

ج. دور المُشجّع والمُتعلّم

يُركّز هذا الدّور على رغبة الأهل في اكتساب مهارات جديدة ومعارف يفتقدونها تُساعدهم على مُتابعة تقدّم أولادهم ونموّهم. عندما يرجع الوالدون متعلّمين، يشجّعون أولادهم ويحفّزونهم للتعلّم. بالإضافة إلى هذا، يستطيع الأهل أن يُساهموا مع المدرسة بتقديم معرفتهم (اختصاصهم)، وخُبراتهم، ومهاراتهم، لإغناء برنامج مُعيّن أو لإنجاح مُبادرةٍ ما، مثلاً: يوم توجيهي للاختصاصات الجامعيّة والمِهَن يستضيف أهلاً من مُختلف حقول الاختصاص والعمل.

د. دور المُتعاون والمُقرّر

في هذا الدّور يقف الأهل إلى جانب المدرسة، إن من خلال لجنة

الأهل، أو بمبادرات أو دعوات شخصية، فيُشاركون الإداريّين والمُعلّمين في حلّ المشاكل، واتّخاذ القرارات، وتطوير السّياسات الّتي تُجيبُ على الحاجات الحقيقية للوالدين، كما تكون عادلة تجاه كُلّ العائلات. بالإمكان تحقيق هذا الدّور عملياً، بإشراك الأهل في هيئات استشاريّة، في فِرَق عمل لمشاريع مُعيّنة، في لجان مُختصّة للإعداد لنشاطات لاصفيّة وثقافية، وغيرها (NPTA, 2000).

٤. المدرسة والأهل فريق واحد من أجل «والديّة» فاعلة

حياة الأهل وعلاقتهم بأولادهم مُعقّدة مُتشعّبة. وعيش الوالديّة الجيّدة يتطلّب الكثير من الوقت والصّبر والحكمة والحُبّ. يشكّل العاملون في المدرسة سنداً قويّاً للأهل في مواجهة تحدّيات مسؤوليّتهم الوالدية، ويساعدونهم على جبه هذه التّحدّيات من خلال توفير التّشجيع والمعرفة والمهارات الضّروريّة لنجاحهم مع أولادهم عبر كُلّ مراحل النمو العمرية التي يجتازها هؤلاء. في هذا الإطار، يجب أن تعمل المدرسة على **وضع برامج دعم للأهل** يتضمّن معارف ومهارات وخبرات تُساعد الأهل على:

- تطوير علاقة ثقة مع أولادهم تستند إلى الاحترام والمحبّة.
- الوصول إلى توقّعات عالية وصحيحة من أولادهم، تستند إلى عمر كلّ ولد وقُدراته وفرادة شخصيّته.
- رسم حدود واضحة ومُناسِبة تُساعد الولد على استيعاب التّراتُبيّة العائليّة وتُدخله في إطارٍ تفاعُلي سليم.
- مُساعدة الأولاد على اكتساب مهارات حلّ المشاكل والنّزاعات من خلال تركيزهم على أهميّة النّظام، والنّتائج المنطقيّة للأفعال والأحداث، وتغذيتهم بالتّشجيع والمُلاحظات الإيجابيّة.

- إعطاء الأولاد مجالاً للاختيار، وتدريبهم على المسؤوليّات، وتوفير فُرَص تقودهم إلى اتّخاذ القرار الصحيح، فيتعلّمون من أخطائهم ويتدرّبون على حلّ المشاكل ويكبرون على المسؤوليّة. ومن المُهمّ جدّاً أن تفصل هذه البرامج بين أهلٍ ما زال أولادهم أطفالاً في مرحلة ما قبل المدرسة، وآخرين بات أولادهم في المرحلة الأساسيّة الأولى والثّانية، وآخرين صار أولادهم في المرحلة المتوسّطة أو الثّانويّة، فلكُلّ ولد حاجاته، ويجب أن يكون لكلّ أهلٍ طرائق تعاطٍ وتصرُّف تختلف باختلاف شخصية الولد وعمره ومرحلة التّعليم التي يعبرها.

من جهة ثانية، تعمل المدرسة مع الأهل من ضمن فلسفة «كسر الحواجز» القائمة بين الشريكين من خلال مناسبات تسمح بالالتقاء والتعاون وعيش الانفتاح المتبادل بين الأهل والمُربّين، ومن خلال مبادرات وخطوات من مثل:

- تشجيع الإدارة والمُربّين على تخطّي المُعوّقات وبناء علاقة مع الأهل قائمة على الهدف المُشترَك، أي مصلحة الأولاد، فيُشركونهم باختبارات عاشوها هُم مع أولادهم في أوضاع مُماثلة أو مرّوا بها مع تلامذة لهم عبر تاريخهم المهني.
- التّأكّد من أنّ مواضيع اجتماعات الأهل ولقاءاتهم في المدرسة تُجيب على حاجات الأهل، وتكون حسّاسة لحالات مُعيّنة يعيشُها بعضهم، مثل الطّلاق، الأهل المُفرد (الولد بصحبة أبيه أو أمه حصراً)، الحياة مع الجدّ والجدّة، إلخ. وإنّنا لسنا بوارد الحديث عن هذه الحالات الخاصّة هنا، ولكن من المُهمّ جدّاً أن يعي المُربّون أنّ حالات كهذه تتزايد كُلّ يوم في مُجتمعاتنا العربيّة، وإذا لم نكُن جاهزين لمواجهتها بنضج ومسؤوليّة ومُساعدة أصحابها على تحمّل مسؤوليّاتهم بنجاح، تُصبح مأساة مُجتمعيّة تطال الجميع.

- إيجاد مركز للأهل يستطيعون أخذ المعلومات منه وإيداعها فيه، كما يُنظّم مُشاركتهم في المدرسة إن في التّطوّع أو في عمل اللّجان وغيرها.
- أن يُصبح أعضاء لجنة الأهل أو بعض الأهل الفاعلين **سُفراء لمشروع الشّراكة** بين المدرسة والأهل، فيشرحون للأهل الآخرين أهميّة مُشاركتهم في حياة أولادهم المدرسيّة داخل المدرسة ومعها، ويشجّعونها على المشاركة.
- خلق نشاطات مُشتركة تسمح بالتفاعل بين كلّ الأفرقاء، مثل تخصيص وقت للمُطالعة حيث يقرأ الأهل على الأولاد قصصاً ونصوصاً ويتبادلون الأفكار حولها؛ وإيجاد مكتبة يستعير منها الأهل كتباً وأفلاماً تثقيفيّة تساعدهم على التّحدّث مع أولادهم المُراهقين في مواضيع مثل المُخدّرات والجنس وغيرها؛ وخلق صفحة إلكترونيّة من أجل نشر المعلومات وتأمين التواصل المستمّر، وغيرها.
- تنظيم ورش عمل مُتخصّصة حول كيفيّة مُمارسة الحياة الوالديّة بالتّعاوُن مع علماء النّفس ومُساعدين اجتماعيّين واختصاصيّين آخرين.
- لقاءات غير رسميّة للأهل في ترويقة يُعدّها لهم المُعلّمون مثلاً، أو حفلات خاصّة للتّعارُف وتوطيد أواصر الصّداقة فيما بينهم.
- الاحتفال بالأهل كونهم «المُعلّمين الأوائل» مرّة في السّنة، حيث يُعبّر المُربّون عن إعجابهم وتقديرهم لما يقوم به الأهل من خلال التوقّف عند بعض التجارب المميّزة.
- تنظيم لقاءات خاصّة بالعائلات الجديدة الّتي تُدخل أولادها مرحلة ما قبل المدرسة، لقاءات مع تربويّين مختصّين، ومع أهل مُختبرين من أجل تقديم التوجيه والمُساعدة لهم في مُختلف المسائل التّربويّة.

- برامج دعم خاصّة بالأهالي الّذين يُعانون من إعاقات، أو هم من ذوي الحاجات الخاصّة (أمّ صمّاء، والد مُقعد...)، للتّشارك في اختبارات ومقاربات وطرائق قد تفيدهم مع أولادهم.
- تسهيل التّواصُل المُباشر بين العائلات ليتعرّفوا إلى رفاق أولادهم وتنمو صداقات عائليّة بينهم ممّا يؤثّر إيجاباً على حياة الأولاد وتعلّمهم. (شيلدون، ٢٠٠٤).